المنظور النفسى والأيديولوجى للشخصية الروائية رواية زينب لمحمد حسين هيكل أنموذجاً

د/محمد السيد عبدالعاطي دحريجة
مدرس بقسم الدراما والنقد المسرحي
كلية الاداب – جامعة عين شمس

ملخص البحث:

استطاع الفن الروائى أن يسجل حضورًا مميزًا بين غيره من الأجناس الأدبية، وأن يحظى بمكانته لدى القارئ، وقد واكب هذا الحضور تنام واضح فى دراساته، واهتمام لافت بقضاياه شكلاً ومضمونًا، يفسره قدرة هذا الفن الإبداعى على استيعاب متغيرات الواقع الإنسانى وتشابكاته، ونقل أفكار الأديب وتأملاته بصورة أكثر عمقًا وتفصيلاً، بما يتوفر فى وسائله السردية من أدوات فنية قادرة على تجسيد الشخصيات الإنسانية بأنماطها وآرائها وتصوراتها المختلفة، والتعبير عن هموم الإنسان المعاصر وقضاياه. والتأريخ الأدبى الدقيق للأحداث السياسية والاجتماعية؛ حتى أصبحت الرواية ديوانًا جديدًا للعرب.

ومع تنامى هذا الفن فى الأدب العربى بدءًا من رواية " زينب " لهيكل التى تؤرخ بها بدايات الرواية الفنية تعددت اتجاهاته – من حيث المضامين والقضايا التى تعالجها الأحداث – منها ما أتى مشتركًا مع أجناس أدبية أخرى ، كالاتجاه السياسـ أو الاجتماعى، أو الرومانسى؛ فهى اتجاهات نجدها فى الشعر والمسرحية مثلما نجدها فى الرواية، ومنها ما ينفرد به هذا الجنس دون غيره، وهذا ما دفعنى إلى دراسة الجانب الأيديولوجي وعوالم النص الخفى فى رواية " زينبشاعر وأديب وسياسى مصرى كبير، ولد فى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ م الموافق ١٢ ذو الحجة ١٣٠٥هـ فى قرية كفر غنام فى مدينة المنصورة ، محافظة الدقهلية.

الكلمات المفتاحية : المنظور النفسي ، الشخصية الروائية، رواية زينب، محمد حسين هيكل

Abstract

The dietary manager was able to record a distinct presence between other literary rates and that it has an enabling point of view. This presence has been a clear and unified innocent research and the interest of its creative and content of the origin of the creation of the actors of the human factory and its complaints. The repercussions of the ideologies and their copies are more deep and exempt, including the narrative of technical tools capable of embodies the human figures, which are different and convicted of the contemporary humans and their perceptions. The exact literature of political and social events; the novel has become a new Dulaan for Arabs. As this art in Arabic literature, from the Zeanab novel, for the dynamic of the novelist, has been identified by the two grades of the two protocols in terms of the incidents and issues dealt with by events - including the city of the political or social, otherwise in the name of the nyth, the world, but this is the most important of which we have been in the novel, which is ranked by this sex without other, and this is what I have to study the ideological side and the world's false texts in the novel of "Zeppricha'aret, Edid and the Egyptian politician", "Born 20 August 1988, the branch of the argument of the city of Al-Mansoura, the province of Zaqullah.

مقدمة

استطاع الفن الروائى أن يسجل حضورًا مميزًا بين غيره من الأجناس الأدبية، وأن يحظى بمكانته لدى القارئ، وقد واكب هذا الحضور تنام واضح فى دراساته، واهتمام لافت بقضاياه شكلاً ومضمونًا، يفسره قدرة هذا الفن الإبداعى على استيعاب متغيرات الواقع الإنسانى وتشابكاته، ونقل أفكار الأديب وتأملاته بصورة أكثر عمقًا وتفصيلاً، بما يتوفر فى وسائله السردية من أدوات فنية قادرة على تجسيد الشخصيات الإنسانية بأنماطها وآرائها وتصوراتها المختلفة، والتعبير عن هموم الإنسان المعاصر وقضاياه. والتأريخ الأدبى الدقيق للأحداث السياسية والاجتماعية ؛ حتى أصبحت الرواية ديوانًا جديدًا للعرب.

ومع تنامى هذا الفن فى الأدب العربى بدءًا من رواية " زينب " لهيكل التى تؤرخ بها بدايات الرواية الفنية تعددت اتجاهاته – من حيث المضامين والقضايا التى تعالجها الأحداث – منها ما أتى مشتركًا مع أجناس أدبية أخرى، كالاتجاه السياسى . أو الاجتماعى، أو الرومانسى؛ فهى اتجاهات نجدها فى الشعر والمسرحية مثلما نجدها فى الرواية، ومنها ما ينفرد به هذا الجنس دون غيره، وهذا ما دفعنى إلى دراسة الجانب الأيديولوجي وعوالم النص الخفى فى رواية " زينب ".

هذا وقد قسمت البحث إلى تمهيد ومبحثين وأتبعت ذلك المصادر والمراجع .

تناولت فى التمهيد:

– التعريف بالكاتب والبيئة التى نشأ فيها .

– مفهوم المنظور النفسي والأيديولوجى .

المبحث الأول: وفيه عرض الشخصيات التى أسست السرد الروائى فى رواية زينب من منظور نفسى وأيديولوجى.

المبحث الثانى : تأثير المكان على طبائع الشخصيات.

* المصادر والمراجع.

تمهيد:

– التعريف بالكاتب والبيئة التى نشأ فيها.

– مفهوم المنظور النفسى والأيديولوجى.

محمد حسين هيكل [١] :

شاعر وأديب وسياسى مصرى كبير، ولد فى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ م الموافق ١٢ ذو الحجة ١٣٠٥هـ فى قرية كفر غنام فى مدينة المنصورة، محافظة الدقهلية .

[١] https://www.hindawi – تاريخ الدخول ٢٠٢٢/٦/٦ .

درس القانون فى مدرسة الحقوق الخديوية بالقاهرة وتخرج منها فى ١٩٠٩ م، حصل على درجة الدكتوراة فى الحقوق من جامعة السوربون فى فرنسا عام ١٩١٢ م، ولدى رجوعه إلى مصر عمل فى المحاماة ١٠ سنين، كما عمل بالصحافة، ولما أنشأ حزب الأحرار الدستوريين جريدة أسبوعية باسم السياسية الأسبوعية عين هيكل فى رئاسة تحريرها عام ١٩٢٦ م .

اختير وزيرًا للمعارف فى الوزارة التى شكلها محمد محمود عام ١٩٣٨ م، ولكن تلك الحكومة استقالت بعد مدة، إلا أنه عاد وزيرًا للمعارف مرة ثانية عام ١٩٤٠ م فى وزارة حسين سرى، وظل بها حتى عام ١٩٤٢ م، ثم عاد وتولى هذا المنصب مرة أخرى ١٩٤٤ م، وأضيفت إليه وزارة الشئون الاجتماعية سنة ١٩٤٥ م .

اختير سنة ١٩٤١ م نائبًا لرئيس حزب الأحرار الدستوريين، ثم تولى رئاسة الحزب سنة ١٩٤٣ م، وظل رئيسًا له حتى ألغيت الأحزاب بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تولى رئاسة مجلس الشيوخ سنة ١٩٤٥ م، وظل يمارس رئاسة هذا المجلس التشريعى حتى يونيو ١٩٥٠م.

توفى يوم السبت ٥ جماد أول ١٣٧٦ هـ الموافق ٨ ديسمبر ١٩٥٦ م ، وقد خلد ذكره بالكثيرمن المؤلفات منها، حياة محمد، وحياة " أبى بكر "، وحياة الفاروق، وحياة عثمان ، ورواية زينب التى تعد أول رواية فى الوطن العربى، حيث نشرت ١٩١٤ م .

المنظور النفسى والأيديولوجى:

موضوع الحب والزواج في المجتمع الريفي والعلاقة بين الرجل والمرأة ووجود كثير من العقد والمشكلات أمام الشباب تقف عائقا لاستكمال إجراءات الزواج؛ بسبب التقاليد التي تتمسك بها بعض القبائل والعائلات، وتكون النتيجة الندامة وضياع الشاب أو الفتاة، كما ضاع حامد، ووقع في الرذيلة، وأصيب بالهم والحزن، واستبدت الآلام والأحزان بـ " زينب "؛ وتعلقها بمحبوبها " إبراهيم " رغم زواجها من " حسن خليل " . الذي لم تهتم بزواجه . فكانت تتذكر في كل لحظة حبيبها حتى وقعت فريسة للمرض، وتضاعفت رويدا رويدا، حتى فاضت روحها، وطويت صفحات الرواية، وهذه الرواية مستقاة من واقع حقيقي، استبدت به أشياء ضد الإنسانية لذلك سلطت الرواية الضوء عليها، وانقشعت الغمة أمام انشغال كل أفراد الأسرة بحالة زينب محاولين التخفيف عنها، جاهدين بكل الطرق والوصفات؛ لتستعيد صحتها، لكن الدواء الوحيد الحب والارتباط بمن نحب، لذلك تتوجه زينب بالنصيحة في آخر الرواية، ومع آخر نفس تتنفسه، حتى لاتقع أخواتها في نفس الأزمة فتنصح أمها، والنصيحة لمجتمع الفتيات بأن تترك الفرصة لهن في اختيار أزواجهن، وعدم إجبارهن على علاقات خارج إرادتهن حتى لايقعن في نفس النتيجة، بذلك نصل إلى حل للعقدة التي عانت منها زينب طوال أحداث الرواية في مجتمع لايعترف بالحب وحق المرأة في اختيار من تحب، من هنا كان للدراسات النفسية والأيديولوجية دور كبير فى علاج هذا المشكلة الاجتماعية الخطيرة.

الدراسات النفسية من الركائز الأساسية فى الدراسات النقدية ؛ وذلك لأن عنصر العاطفة فى النص هو العنصر الذى يتناول الجوانب الشعورية فى التشكيل الأدبى.

الصفات النفسية من المكونات الأساسية للشخصية، فالشخصية مزيج من الصفات النفسية والجسدية والثقافية، وهى خصال تميز الشخصية عن باقى شخوص المجتمع، كما أن هذه الصفات هى التى تظهر مدى تنافر الشخصية أو توافقها مع المجتمع، كما أنها تبرز الخصائص الكامنة فى أعماق الإنسان باعتبارها مدخلاً لفهم مواقفه وتصرفاته، وملمحًا عن صدقه النفسى مع ذاته ومع من حوله.

ومن ثم فإن التركيز على الصفات الجسدية دون النفسية يجعل الشخصية غير حيوية مثلها مثال التمثال المنحوت أو اللوحة التشكيلية، فالجانب النفسى هو الذى يجعل الشخصية تتعايش مع الواقع، وبدونه تبدو الشخصية غامضة، ولا يستطيع المتلقى التعرف على أبعادها؛ " ويخطئ من يقتصر من الكاتب على التصوير الخارجى للشخصية دون تعمق، ودون استبطان، ودون إتاحة الفرصة للشخصية كى تعلن عن نفسها " [١] .

المعنى اللغوى للأيديولوجية:

هى مفردة دخلت لغتنا العربية فى العقد الثالث من القرن العشرين ، ويرى " عبدالله العروى " أنها مشتقة لغويًا من " الأدلوجة " ويقصد بها " معرفة الظاهرات الآنية والجزئية فى مجال نظرة المعرفة، ونظرية الكائن تتضمن أحكامًا حول الحق، ووظيفتها إظهار الكائن للإنسان الذى هو جزء من ذلك الكائن "[٢].

المعنى الاصطلاحى للأيديولوجية :

إن مصطلح الأيديولوجيا " Ideology " يعنى كل ما تسرب فى وعى الفرد من آراء وأفكار ومعتقدات نتيجة السلوكيات التى يمارسها فى المجتمع، أو المكتسبات الدينية والمعرفية. ويرى " كارل مانهايم" أن الأيديولوجيا هى" حصيلة الأفكار والآراء والتصورات المحافظة التى تؤيد الطبقة الاجتماعية" [٣] .

علاقة النص الروائى بالأيديولوجيا :

إن الرواية ليست نصًا فقط، وإنما هى مزيج من الفكر والثقافة والمعتقدات، وهذه العناصر هى إحدى المرتكزات التى يتوكأ عليها النص.

---

[١] د/ يوسف نوفل : قضايا الفن القصصى – ط ١ القاهرة ١٩٧٧ م – ص ١٧١ .

[٢] عبدالله العروى : مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافى العربى (التنوير)، ط ١، الدار البيضاء ١٩٨٣، ص ١٣ .

[٣] كارل منهايم (الميتافيزقيا والعصر والأيديولوجيا) ، نقلاً عن : عبدالسلام بن عبد العالى، الشكة المغربية للناشرين المتحدين ط ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٨١ م ، ص ٤٩ .

" فالأيديولوجيا " تعد بمثابة التربة الخصبة التى تضم الأفكار والآراء والتصورات، والروائى بمثابة الزارع الذى يقوم بحرثها وتخطيطها وتشكيلها لتؤتى أطيب الثمار، أو هى بمثابة العجينة الطيعة التى تخضع للروائى أثناء عملية الإبداع، ومن ثم، فإن النص الروائى يكون مشحونًا بالمتناقضات.

عندئذ، يمكن القول إن الأيديولوجيا والرواية مرتبطان، فالأيديولوجيا هى المادة الخام المنصهرة فى بوتقة الرواية، ويرى " حميد الحمدانى" أن الأيديولوجيا من مكونات البنية النصية الروائية[١]. بل إن " فعل الشخصية وسلوكها فى الرواية لازمان، سواء لكشف وضعها الأيديولوجى وكلامها أو لأختبارها[٢]، كما أن الأيديولوجيا هى ذلك النسق من الآراء والمعتقدات التى يبثها النص الروائى كذات، وهى بقدر ما تكون مستقلة لأنها مخلوقة من خالق معين هو مبدع النص[٣]

المبحث الأول

الشخصيات التى أسست السرد الروائى من منظور نفسى وأيديولوجى

البعد النفسى يتجلى فى التعبير عن معاناة الريف وعاداته البائدة وتقاليده التي تجعل من شخوصه نماذج وقوالب ثابته قد تصاب بأمراض نفسية واجتماعية ، نتيجة الوقوع تحت حصار هذه العادات، فتتناول الرواية قضية الحب العذري العفيف في الريف المصري، وعدم الاعتراف به في المجتمع الريفي، وبالتالي ضياع الهدف، وانسحاق الآمال على صخور اليأس والإحباط.

يتجسد البعد الاجتماعى – هنا – فى إخفاق تجربة الحب العذرى، ونشوب الصراع النفسى داخل الشخصيات، وذلك من خلال الإحساس بظلم المجتمع، وتأثير الفوارق الطبقية فى المجتمع، والمتجذرة بجذور ربما أقوى من جذور الدين، دون اعتبار للمشاعر والإحساس المتبادل بين المحبين، ويتجلى ذلك من خلال إلقاء الضوء على شخصيات الرواية وأحداثها، وقد يهتم الروائى بإبرازالملامح الداخلية للشخصية من خلال تصوير واقعها الداخلى الذى يتكون من مشاعر وأحاسيس وأفكار وتطلعات [٤]

وقد لعبت زينب دورا أساسيا في الرواية، حيث يبدأ السرد الروائى بوصف حياتها مع عائلتها، وحب حامد لها ، وكذلك حب إبراهيم وتعلقه بها ، لكن (إبرهيم) يبوح لها بحبه، أما (حامد) الذي يملك القرار واالحرية التي منح إياها في منزله، فأبوه مثقف يعطي لأبنائه الحرية

---

[١] حميد الحمدانى : النقد الروائى والأيديولوجيا ، المركز الثقافى العربى ، ط ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ ، ص ٢٦ .

[٢] ميخائيل باختين : الخطاب الروائى – ترجمة : محمد برادة – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – ط ١ – القاهره ١٩٨٧ – ص ١٠٢ .

[٣] نبيل سليمان – فتنة السرد والنقد – دار الحوار للنشر والتوزيع – ط ١ ، اللاذقية ، سوريا – ١٩٩٤ م – ص ٢١٧ .

[٤] عبدالحكيم حسان : مقدمة " الجرح " مجموعة قصصية للدكتور حسن البندارى – مكتبة الأنجلو المصرية – ط ٢ ، القاهرة ١٩٩١ م – ص ٩

في اختيار ما يرونه صوابا، ومن أسرة استقراطية تمتلك كل شيء، كان بإمكانه أن يظفر بزواجه منها، لكنها تفتقد الحبيب، وتحاول أن ترفض الزواج لحبها لإبراهيم، لكنها تجبر على أن تتزوج بمن لا تحبه، ولا يحبها، حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتصعد روحها إلى السماء، وتطوى صفحات الرواية بموتها واختفاء" حامد" الذي منعته التقاليد والفوارق الطبقية وتقاليد المجتمع الارتباط بها.

وذلك بسبب الصراع النفسى للشخصيات الريفية في مواجهة الطبقة الارستقراطية، والتى تتمثل في ازدواجية الطبيعة / المجتمع، فـ (حامد)هو الشخص الذي يضاهي الطبيعة بتصرفاته، وهو الشخصية المحورية، أما(إبراهيم وحسن وزينب) شخصيات ذات أبعاد أيديولوجية ونفسية، تتمسك بعادات وتقاليد مجتمعها التي توارثتها من أجدادها، لذلك فهي شخصيات مغلوبة على أمرها، تمارس ما يفرضه المجتمع عليها دون جدال، ازدواجية تسير عليها أحداث الرواية، لكن الطبيعة تستحوذ على الجانب الأكبر من الحدث، وتدور أحداث الرواية حول شخصيتين هما(حامد)، وابنة عمه(عزيزة) وهي فتاة متعلمة، لكنها فقيرة أمام الغنى الذي يرثه حامد من أبيه صاحب الأطيان والأملاك، تم الاتفاق بين الأخوين على قراءة الفاتحة، فهما مرتبطان ومخطوبان، وبحكم العادات والتقاليد الريفية التي يفرضها المجتمع هام في حبها، وتم تبادل الخطابات بينهما، لتكون الصدمة الأولى في حياة (حامد) من الإحباط واليأس، عندما تتزوج (عزيزة) من رجل آخر. يحاول (حامد) التماسك واستعادة توازنه النفسى وهيامه ؛ فنجده يفتش عن حب آخر؛ حيث يعشق فتاة أخرى تدعى " زينب " فيلاحقها ويتبادل معها أطراف الحديث، لكنه لم يستطع أن يبوح لها بحبه، على الرغم أن عشقه لها تجاوز عشقه لـ (عزيزة)، فكانت بالنسبة له الوطن والأم والأرض، لكن (زينب) الفلاحة البسيطة غير المتعلمة، لا تدرك مشاعره، وتتعلق بـ(إبراهيم) ولكنها لم تتزوجه أيضا، وتبتعد عنه، لكن يفوز بها في النهاية شخصية أخرى (حسن) فتتزوجه بأمر خارج عن إرادتها، ويقبل (حامد) على علاقات غير مشروعة مع نساء متزوجات، وغير متزوجات باحثا عن الحب والمتعة المحظورة، لكن يحتدم الصراع النفسى بداخله حيث نجد ضميره يؤنبه ويوقظه؛ ليذوب البطل/ حامد في دوامة الحياة، ويتزامن اختفائه مع موت حبيبته(زينب) التي تركها (إبراهيم) ليجند بالجيش، فيستبد بها مرض السل الذي انتشر في مصر آنئذ.

الشخصية هي إحدى المرتكزات الأساسية التي يرتكز عليها الروائي عند بناء روايته، وهى من أهم المكونات التي تشكل لبنات البناء الروائي؛ إذ إنها . الشخصية . العتبة الأولى التي ينفذ منها الروائي إلي الفضاء النصي، ثم يبدأ في بلورتها وصياغتها في القوالب الفنية التي تحدد

ملامح البناء الروائي. وبدون هذه الشخصية يصبح النص مجهول الهوية وغير محدد الملامح، ولا يصح أن يطلق عليه جنس الرواية؛ لأن "الشخصية هي الشيء الذي تتميز به الأعمال السردية عن أجناس الأدب الأخرى أساساً، فلو ذهبت الشخصية من أي قصة قصيرة لصنفت، ربما، في جنس المقالة".[١]

إذًا، الشخصية تميز الرواية عن غيرها من الأجناس الأدبية ،وتلعب دورًا كبيرًا في السرد الروائي؛ "فهى المصدر الرئيس أو المنتج الأساسى للغة، كما أنها مصدر إرسال واستقبال الحوار وهى التي تصطنع المفاجأة (lemonologue iterieur) وهى التي تصنف معظم المناظر" [٢] .

والواقع أن الشخصية يجب أن تلقى صدى في نفس المتلقي؛ أي أنه يقتنع بها وبما تلعبه من أدوار داخل البناء الروائي. ويتم ذلك من خلال حرص الكاتب على مزج كل المكتسبات التي اكتسبها من واقع علاقاته مع شخوص المجتمع، ثم إنه يقوم بغربلتها، فيختار ما يتوافق مع شخصيته، وما يجعلها تلقى قبولاً واقناعًا عند المتلقي، ويطرح ما يتعارض مع شخصيته المرسومة في ذهنه. ومن ثم، فإنه يمكن القول إن الشخصية مرسومة من خيال الكاتب واختراعه، وربما لا يكون لها أساس في الواقع . لكن محاولة بلورتها في صياغة فنية وحشدها بالإمكانات التي تتناسب مع واقع شخصيات المجتمع . ينفث فيها الروح، وتبدو للمتلقي شخصية واقعية تتركب من روح ودم ،مع أنها ليست أكثر من مداد على ورق ؛وذلك لأن الروائي أثناء رسمه للشخصيات أثقلها بقضايا الواقع ومشكلاته، وبثها آراءه وتصوراته ،وجعلها تشعر بآلامه، وتعبر عن تطلعاته. لكنها – في الحقيقة . "لا أساس لها بدون المفردات لأنها مجرد كيان ورقى لا واقع لها " ومع ذلك فإن رفض وجود أية علاقة بين الشخصية والشخص يصبح أمراً لا معنى له" [٣] ؛ أي أن الشخصية الروائية تمثل شخصيات واقعية على الرغم من أنها خاضعة لخيال المؤلف، لكن حرصه على التقاط المشاهد واختيار لغتها وحوارها وعلاقتها بباقي الشخوص داخل العمل الروائي،ودورها فى حركة تنامي الحدث، وصراعها من أجل تحقيق أهدافها ومآربها، كل هذه التقنيات بما تحمله من انفعالات نفسية، ومكتسبات اجتماعية، تجعل من الشخصية الروائية . المتخيلة . شخصية واقعية تتعايش مع باقي الشخوص في مجتمع الرواية، " وعندما

[١] د. عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية " بحث في تقنيات السرد" ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد(٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ديسمبر ١٩٩٨م، صـ ١٠٣.

[٢] السابق نفسه ، صـ ١٠٣، ١٠٤.

[٣] حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء . الزمن . الشخصية)، المركز الثقافي العربي ،ط١،بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٠م، صـ ٢١٣.

يتابع المتلقى أية شخصية روائية يحاول أن يقنع نفسه أو الأخرين بأن تلك الشخصية تعبر عنهم أو تمثلهم على نحو ما ".[١]

ومن الشخصيات المحورية:

❖ زينب: هي البطلة الرئيسة التي تدور حولها الرواية، والتي يتصدر اسمها الرواية ،فالرواية تبدأ بها والبطولة ليست شيئًا ما يمكن أن يحدد من خصال شخصية البطل وحده بل الظروف هى التى تخلق البطل[٢] وهي فتاة جميلة بسيطة، كانت تقوم بواجباتها المنزلية العائلية، فكانت تخدم أمها وأباها وأخاها وأختها، ويروي السارد ذلك:

"هنالك التفتت إلى أختها تهزها لتستيقظ . لكن الصغيرة كانت في نوم عميق ،فلم تنتبه ..... وبعد أن استيقظت أختها التفتت إلى أخيها وأيقظته .... هنالك قامت فأوقدت نارا ولدنت فوقها رغيفا لكل منهم " [٣]

بالإضافة إلى عملها مع أختها أجيرة في مزرعة السيد محمود، وتتعرف على (حامد) ابن صاحب المزرعة التي تعمل فيها، فتقع في حبه، ويميل إليها ويفتن بحسنها، ويصفها السارد في الرواية:

ها هي زينب في تلك السن ترنو إليها الطبيعة وما عليها بعين العاشق، فتغض طرفها حياء، وترفع جفونها قليلا قليلا لترى مبلغ دلها على ذلك الهائم، ثم خفضها من جديد، وقد أخذت مما حولها ما ملأ قلبها سرورا، وأضاف إلى جمالها جمالا ورقة [٤].

ويسرد النص الروائى صراعها النفسى بين حبها لإبراهيم المشرف على أعمال الفلاحين، وبين الزواج – دون إرادتها – من حسن خليل؛ لأن حبها كان ل(إبراهيم) وحده وأصبح ذكره يزيدها وجعا ومرارة، وكانت كثيرا ما تتخيله أمام عينيها يفتح أحضانه لها، مما يزيدها حياء واحمرار لوجهها، تم الزواج من (حسن) لكن حالتها الصحية والنفسية تدهورت، بالإضافة إلى سفر (إبراهيم) للخدمة العسكرية مما زادها آلاما وأوجاعا، وتدهورت حياتها، وأصيبت بالسل، وكما بدأت بها الرواية، فإنها تنتهي بوفاتها.

❖ (حامد السيد محمود) من الشخصيات الرئيسة التي تدور أحداث الرواية حولها، تفترق وتتشابك عندها، في بناء سردي متماسك والصفة الاجتماعية أساسية فى تحديد معاير

---

[١] د. عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، سابق ، صـ ٩٠.

[2] see coud weel . cristpophesl sludies im a dying culture . London , Johnlam the bodley head 1951 , P22

[٣] محمد حسين هيكل – رواية زينب – ص ١٣، ١٤ – مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة – ٥٤ عمارات الفتح ، حى السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١ ، القاهرة جمهورية مصر العربية .

[٤] السابق نفسه ص ٢٠ .

البطل ورصيده الواقعى[١] وهو أكبر إخوته سنا، ويعيش مع أسرته، وكان والده يهتم به كثيرا لدرجة أنه لايستطيع أن يأخذ أي قرار بنفسه دون الرجوع إليه، نشأ مثقفا، وكان موضع احترام للجميع،يرصد الخطاب الروائي مميزاته كما يلي:

" كان طفلا كثير الدلال، كثير البكاء، موضع الإعزاز من جميع من في الدار .... وبقى دائما على عادته من المكث بين جدران البلد في حين كان أعمامه يجوبون المزارع".[٢]

و يلعب الحوار دوراً كبيراً في البناء الروائي سواء أكان الحوار داخلياً أم خارجياً، فالحوار الخارجي (الديالوج) يدور بين شخصيتين على طريقة الأخذ والرد، أو الاستفهام والجواب، كما يبرز الجوانب أو الملامح الداخلية لكلتا الشخصيتين، ويمكن القول بأن الحوار هو الشخصية، وهو أدق وسائل الروائى فى رسم الشخصية وتثبيتها ومنحها الحياة [٣]

وتتبدى المشكلة التي كانت تواجهه أن زواجه من زينب سيرفض من العائلة بسبب التفاوت الطبقي بينهما، وبالرغم من اقترابه منها وحبه لها، إلا أن نزعة العظمة والترفع كانت تحيط به أحيانا وتعيده إلى الماضي المؤلم المتمسك بالعادات والتقاليد التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وبعد زواج (زينب) من (حسن) لم يجد ملاذا له سوى المزرعة، وقيثارته التي تنفث آلامه، لذلك كان المنظور الأيديولوجى والنفسى دافعًا للشخصية إلى الانهماك فى العمل، وشجنه وحزنه الذى تبتدى فى قيثارته الحزينة:

".... ثم انقلب راجعا إلى مزرعة القطن ذات طنبور البهائم، وفي يده قيثارته يتسلى بها " [٤]

❖ شخصية إبراهيم: أحد الشخصيات الثانوية المشاركة في السرد الروائي، يعمل عند السيد محمود، ويرعى أعماله ويشرف على الفلاحين في المزرعة، كان يعاني صراعًا نفسيًا من عدم العدالة والمساواة، وهو من أكثر الناس دفاعا عن حرية أمته، ويسلط السرد الروائي الضوء على ذلك ويصف حالته النفسية المهيمنة على الشخصية:

" كان يجلس وسط الظلمة الدامسة، يشكو ما يعانيه قلبه وما يعاني منه من فقر؛ لأنه لا يستطيع أن يمسك حريته بيده، وأن يكون مع غيره على بساط من المساواة" [١]

---

[١] د/ محمد منجيب التلاوى : الذات والمهاز . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٧ م – ص ١٦١ .

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ٢٥ .

[٣] د/ مصطفى الضبع ، رواية الفلاح ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهره ١٩٩٨ م – ص ٢١١ .

[٤] هيكل – رواية زينب – ص ٢١٣ .

،وهو صديق لـ (حامد)، ويقع في حب زينب أيضا ؛ كان يجاهد نفسه على كتم حبه، لكنه ضعف وأباح له بحبه رغم علمه بأن (حسن) سيتزوجها، لكن خدمته العسكرية، والتحاقه بالجيش وسفره إلى السودان هو من يحول دون تحقيق الزيجة .

❖ شخصية حسن: شخصية بسيطة تتمتع بالثراء، زوجه أبوه (خليل) من زينب ؛ وهو من اختارها له، وقد بين النص الروائي المنظور الأيديولوجى لشخصية الأب(خليل) والابن (حسن) فاقد الرأى، حتى أنه لا يملك قرار اختيار زوجته وشريكته فى الحياة.

" اختار خليل لابنه زينب الفلاحة بنت محمد وقام بخطبتها، وعند مضي شهر من الزمان ذهب خليل وحسن إلى بيت زينب وقاموا هناك بحفل الزواج ومن بعدها انتقلت زينب إلى دار زوجها حسن" [٢]

ويتأزم الصراع النفسى بداخل شخصية (زينب) وتموت بالسل وتغلق صفحات الرواية، وظلت زينب تصارع أيديولوجيا المجتمع؛ لأنها تزوجت من شاب لاتحبه، وإنما تزوجته بدون إرادتها، فلم يكن لها حرية الاعتراض أمام رغبة الأسرة على هذا الزواج الذي عانت منه، وكان له أثره في إصابتها بالسل، وكان الكل في صراع نفسى مع الزمن طلبا لشفائها من المرض اللعين ،كما يكشف عن ذلك الخطاب الروائي:

وكان الكل إلى جانبها يعتني بصحتها ولا يتركونها للحظة واحدة ولا سيما أمها، وبقيت زينب على هذه الحالة اليائسة والمحزنة إلى أن وافتها المنية ، وحينئذ ارتفع صوت صراخ والدها يعلنان في الفضاء موتها " [٣]

ويرى الباحث هنا. أنه زمن نفسي والزمن قد يدنو ويبتعد تبعًا لانفعالات الذات وحالتها الشعورية، ومعنى ذلك أن الشخصية لا ترتبط بالوحدات الزمنية المتعارف عليها، فقد تمر الدقيقة على الشخصية ثقيلة وفقاً لمشاعر الشخصية وانفعالها في هذه اللحظة، "ويترتب على هذا أن الزمن ليس هو الفترة المحددة بأربع وعشرين ساعة بل تتمثل قيمة الزمن وتتحدد في إحساس الشخصية وانفعالها به مما يكشف عن الكيان النفسي لها". فالسمات التكوينيه للشخصية تتألف من إشارات باطنية وخارجية [٤]

والزمن النفسي بالنسبة للشخصية الروائية لا يقاس بالساعة الزمنية التي يعرفها البشر، وإنما يقاس هذا الزمن وفقاً لإحساس الشخصية. وقد اهتمت الرواية المصرية بتجسيد ذلك الزمن

---

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ١٢٢ .

[٣] هيكل – رواية زينب – ص ٢٠٩ .

[٤] برنارد فاليط ، النص الروائى " تقنيات ومناهج " ترجمة د/ رشيد بنجدو ، المشروع القومى للترجمة والمجلس الأعلى للثقافة القاهره ١٩٩٩ – ص ٤٥ .

الذي يرجع إلى طبيعة الشخصية الروائية والموقف الذي تمر به ويرى دكتور محمود الحسينى أن إحساس الشخصية بالزمن الميكانيكى يتضاءل ويحل محله زمن ذاتى لا يتقيد بدوران الأرض حول الشمس[١]، فاليوم كان يمر على (زينب) كأنه يمثل ما مر من عمرها فكانت الدقيقية تتجاوز سنة؛ نتيجة حزنها وإحباطها ومعاناتها من هذه الزيجة التي فرضت عليها؛ لذلك توجه النصيحة لأمها، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بألا تفرض الزواج على أخواتها وتعطيهن فرصة الاختيار.

وتدخل(زينب) فى صراع نفسى مع الماضى المبتسم والحاضر العابث حيث يبقى الزمن الماضي هو المسيطر على أحداث الرواية، مجسدا مراحل الحب التي عاشتها زينب ، لذلك تفر من واقعها المؤلم المصاب بالملل واليأس، وتلوذ بالماضي البعيد، وتسترجع ذكريات الحب والسعادة بتقنية الفلاش باك.

- ❖ شخصية عزيزة :هي الحب الأول لـ (حامد) وهي ابنة عمه، وتصغره سنا، وكانت تميل إلى القرية بحثا عن الهدوء والراحة والبعد عن ضوضاء المدينة .

ويتجلى الصراع بين الرغبة فى الإقامة فى القرية، والبعد عن المدينة التى تعج بالصخب والضوضاء، لذلك فإنها تقبل على القرية بنهم: " جاءت عزيزة إلى القرية كعادتها كل عام. هذه أيام صيف يهجر الناس فيها المدن، وإذا كانت ستجد مكان الحيطان حيطانًا فعلى كل حال فى الانتقال تغيير هواء، كما أنها تخرج فى بعض الليالى المقمرة مع أهل البيت يخفرهن رجال من أهلهن. فلما علم حامد بمجيئها ترك التفكير فى كل شئ سوى أن يذهب إليها، فيسلم عليها، ويجلس إلى جانبها يسألها عن حالها ... ما أحلى هاته البنيّة أيام كانت صغيرة خفيفة سريعة الحركة كثيرة الضحك، أيام كان يلعبان معًا منفردين فلا يسألان عما يفعلان !"[٢].

ويعتمل الصراع النفسى فى داخلها إثر انفعالها بعاطفة الحب، وتصور فى نفسها الزوج الذى تأمله فى المستقبل القريب، وكان (حامد) من أعز الشخصيات التى كانت تطمح فى أن يكون زوجًا لها:

" غير أن قلبها الحبيس دائمًا، ونظرها الذى لا يجتلى السماء إلا من نوافذ الدار ، وسمعها الذى لم يذق شَجْوَ الأغاريد وإن لم يغب عنه نوح الحمام، ووجودها كله الذى يحس بالجمال العظيم فى الكون كأن بينهما وحيًا ونجوى، ثم لا يقدر على استطلاعه وتذوق ساعات الوحدة والخلوة كل ذلك شتّت نفسها وبعث فؤادها فى تيهاء لا يعثر فيها بسعادة ولا بشقاء، وإن أحس

[١] د/ محمود الحسينى : تيار الوعى فى الرواية المصرية المعاصرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة كتابات نقدية ٤ (٥٩) القاهره ١٩٩٧ – ص ٨٥ .

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ٦١ .

بالراحة والرضا إلا أن تزعجه نار الحب تأجّج بين ضلوعها فتبعثها تجوب تلك التيهاء من جديد ثم تعاودها هدأتها، وهكذا هى بين حيطانها الأربعة أشد حيرة من الدمعة فى عين المحزون، تجد السلوان فى أحلامها للمستقبل البعيد، وأمانيها لأيام الزواج السعيدة وتصور فى نفسها الزوج الذى تهيه قلبها من اليوم، ثم تهم تبحث عن شخص ذلك الزوج المحبوب وترجع إما فارغة اليد ينغَّص الأسى أحلامها أو راضية إن عثرت بمن عرفته أو سمعت به " [١].

هنا – يرتبط الحلم بذكريات الشخصية، والحلم لا يحده زمان أو مكان ولا يخضع للعقل وإنما يدور فى منطقة اللاوعى، فعندما يغلق الإنسان عينيه، ويسود الصمت حوله تأتى إليه الأفكار والصور، وتبدو كما لو كانت بعض الوقائع الحقيقية التى تحجز داخل عقله، عندئذ يرى الإنسان ذكريات الأحداث الماضية [٢].

المبحث الثانى

تأثير المكان على طابع الشخصيات

المكان الروائي ليس زِخرفاً أو ديكوراً يزين به الروائي النص الحكائى، وإنما يعد عنصراً من العناصر التي تعبر عن هوية الشخصية وبعدها الاجتماعي، كما أنه يكشف عن مكنوناتها الدفينة؛ حيث يعبر عن انتماء الذات للمكان أو جحودها عليه.

إن المكان الروائي هنا. ليس المكان المرتكز" على العناصر الموضوعية كجغرافيته، هندسته، ضيقه أو اتساعه، إمكاناته الوظيفية ... كل تلك المداخل ترتبط بالمكان بوصفه موضوعاً منفصلاً عن الذات الإنسانية وتفتقر إلى جانب ذاتي أساسي، هو خبرة الإنسان اليومية به، الخبرة المعيشة وتجربته الخيالية فيه ". [٣]

علاقة الشخصية بالمكان علاقة قوية، فعن الحديث عن المكان، نتوقع الحدث الذي تقوم به الشخصيات؛ لأن المكان يمثل عنصرا جوهريا في البناء الروائي، فالمكان الروائي " يمكنه أن يكشف لنا عن الحياة اللاشعورية التي تعيشها الشخصية، وأن لا شيء في البيت يمكنه أن يكون ذا دلالة من دون ربطه بالإنسان الذي يعيش فيه"[٤]. وسطوة المكان تتعدى فى الواقع ما يبدو على السطح من تأثيرها وفاعليتها المباشرة فى أعماق التكوين النفسى للشخصيات[٥]

---

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٦٧ .

[٢] شاكر عبدالحميد : الحلم والرمز والأسطورة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهره ١٩٩٨ م ، ص ٤١ .

[٣] سلمى مبارك : في شاعرية المكان (المدينة في الأدب والسينما) ، فصول ، ع (٥٩) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ربيع ٢٠٠٢م، صـ ٣٠٦.

[٤] حسن بحراوى – بنية الشكل الروائى ، مركز الثقافى العربى – ط ١ ، بيروت – ص ٤٤ .

[٥] صبرى حافظ : للحداثة والتجسيد الروائى للرؤية الروائية ، فصول ج ٤ ، ٤٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهره ١٩٨٤ م – ص ١٧٢.

يمثل الريف فضاء مفتوحا للمكان في" رواية زينب"؛ الريف بأهله وحيواناته وجوه وأشجاره وحقوله وعاداته وتقاليده، وهو مأوى وملاذ للدعة والهدوء والسكينة، وهو الساحة التي تلتقي فيها العائلات مع بعضهم البعض، واستثمرت الرواية في ثناياها أماكن أخرى مغلقة، كالقرية حيث تأتي عزيزة مع أمها إلى القرية قاصدتين المتعة والراحة بجمال الطبيعة البكر والهدوء، ومجيء حامد مع أسرته لرؤية المناظر الخلابة وعشق حياة الفلاحين. البيت ويمثل العزوة والسند، فـ " السيد محمود " لديه أسرة كبيرة، ويترك لهم الحرية كاملة دون أن يفرض رأيه على أحد من أفراد البيت ويستطرد الكاتب في وصف القرية ليلا، فيقول :

"في هاته الساعة من النهار حين تبدأ الموجودات ترجع لصوابها، ويقطع الصمت المطلق الذي يحكم على قرى الفلاحين طوال الليل أذان المؤذن وصوت الديكة ويقظة الحيوانات جميعا من راحتها تتلاشى الظلمة ويظهر الصباح رويدا رويدا من وراء الحجب " [١]

ويرى الباحث أن السارد قد أقحم على النص الروائي وصف الطبيعة الريفية بجمالها ورقتها وبساطها الأخضر، وصفا مفتعلا لطول غربته، وحنينه إلى بلده خاصة، وأنه قد كتب الرواية في الغربة، وهو بعيد عن تراب وطنه. وتغص الرواية بالعديد من الأماكن كبيوت القرية وغرفة حامد في المدينة، الذى يجلس فيها متذكرًا هدوء الريف وجماله وطبيعته الخلابة التى تريح النفس وتطمئن القلب وكأنها دواء للأدواء كلها:

" فإذا ما خلا حامد بنفسه وجاءت فرصة ذكر فيها الريف وجماله، ارتسمت أمامه المزارع بكلها، وغدرانها الساكنة تشق الأراضى الواسعة، ويقوم عن جانبيها الشجر بكسائه الأخضر البديع، والآلات مشتته هنا وهناك تدور فتبعث فى الهواء نغمتها الحزينة الشاكية، ويعلو ذلك سماء صافية مهيضة بنور الشمس الساطع. فإذا ما جاء المغرب وانتشر الليل تلألأت النجوم فى علوّها وسَرَى النسيم الرقيق فأرسل للخليقة الهادئة أسعد الأحلام، وأحيانًا يذكر زينب ومن معها "[٢]. ومظاهر الحياة الخارجية من مدن ومنازل وأثاث وأدوات وملابس تذكر لأنها تكشف حياة الشخصية النفسية [٣] .

ويستطرد " هيكل" فى وصف المكان الذى أضفى عليه روحه الهادئة المتيمة بعشق الريف – فى الشتاء – وتنعكس الطبيعة بجمالها على نفوس من يمكثون فيها، فنرى الأرض غانية بالنعم، ولا يشق هدوء الطبيعة إلا جماعة الطير تصب من علوها أغاريد الشتاء:

---

[١] هيكل – رواية زينب – ص ١٣ .

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ٢٥ ، ٢٦ .

[٣] د/ سيزا قاسم : بناء الرواية ، دراسة مقارنة فى ثلاثية نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ، القاهره ٢٠٠٤ م ، ص ١١٥

" ومزارع البرسيم تذهب أمام البصر إلى اللانهاية وأقفرت الأرض من بنى أدم ، جماعة العمال وأصبحت مرعى للنعم التى شاركتها أيام نصبهم. وها هى زى ترتاح أن جادت عليهم الطبيعة ببعض الراحة، فتراها فى رعيها وكأنها فى شهور عيدها ترفع رأسها ما بين آونه وأخرى ثم تزعق فتملأ أذن الطبيعة الصامتة. ويجيبها من الجو جماعة الطير من قطاة أو قمرية تصب من علوها أغاريد الشتاء، وتصدح بصوتها الرخيم الهادئ فتملأ أذن الطبيعة بما يذهب روعها ويرد إليها هدأتها. ثم على مرمى النظر ترى عشا من الحطب الناشف أبيض لا غبرة عليه قد غسله المطر والريح. وفى تلك الفتحة الضيقة التى يسمونها بابه تلمح أردية سوداء لا حراك بها ،فإذا اقتربت رأيت نارًا موقدة قد غطاها التراب، وحولها ومن تحت تلك الدفافى تطل وجوه الفلاحين السمراء وهم يتحدثون إلى جانب ذلك القليل من الحرارة، وقد اتخذوا عشهم درءًا من تيار الهواء الشديد فى ذلك الفصل من السنة. ثم ما بين ساعة وساعة يقوم صغير من بينهم ليرى أمر هاته الدواب الراتعة فى مرعاها. وإذا أرسلت بنظرك على طول الطريق رأيته خاليًا إلا ساعات من النهار يسرح فيها الشغالة أو يرجعون. وما سوى ذلك فقل أن تدوس السكة قدم. "[١]

وقد يميل بعض الروائيين إلى استدعاء أماكن حقيقية فى الفضاء الروائى، بهدف إيهام المتلقى بواقعية المادة المروية، أو إضفاء الواقعية على النص الحكائى، وتشخيص المكان فى الرواية هو الذى يجعل من أحداثها بالنسبة للقارئ شيئًا محتمل الوقوع.[٢]

وعلى سطح منزل" زينب" يرتقى" حامد " السلم لعله يراها فترتاح نفسه من ألم الفراق، فأجابته بنظرة تسللت إلى أعماق نفسه، وفى الظلمة الحالكة يتبادلان أطراف الحديث، وإذا ما كانت ظلمة المكان أتاحت لهما قسطًا من الحرية استطاعت زينب من خلالها أن تتمرد على التقاليد وترضى بأن يقبلها حامد ويضمها ويلاطفها إلا أن الدموع تنهمر من عينيها حينما تذكرت أن قلبها ليس بيدها:

" فوق السطح الممتد عليه رواق الليل الحالك الظلمة وجد زينب جالسة وحدها، فأخذ مكانًا إلى جانبها، ونبهها بحركة لطيفة لوجوده ، لكنه دهش لهذه الوحدة التى وضعت الفتاة فيها نفسها تاركة الدار والضجة والضحك، لتبقى منفردة تحت رحمة الشتاء. لذلك لم يزدد دهشة أن رآها حين التفتت إليه بادية الذهول ثابتة العين . وبعد لحظة سألها: ازيك يا زينب ..!

ولكن زينب كانت فى تيهاء حتى لم تستطع تمييز ما يقوله لها حامد، فحولت نحوه عينيها، وأجابته بنظرة تحوى من الرقة والألم ما ذهب إلى أعماق نفسه. ولو لم يكن ما فى المكان من

---

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٢٦ .

[٢] د/ حميد الحمدانى ، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبى .

ظلمة ليل الشتاء آخر الشهر لذابت لهذه النظرة نفس الوجود. لكن الحلكة السائدة لم تبق من ثالث يحس مع حامد بما حوته النظرة الأليمة !

وازيك يا زينب ..

كرر حامد سؤاله، وأخذ يدها بين يديه، وقبلها على صدغها قبلة أخوية. الواقع أنه أحس كأن الفتاة المسكينة تعانى ألمًا نفسيًا لا يعزيها عنه أحد، فأخذته الرحمة بها. وتقبلت زينب منه ذلك بقنوع وشكر نمت عنه نظراتها. فلما رآها كذلك زاد عطفًا عليها، فجذبها وجعل يلاطفها، وهى قد تاهت عن نفسها، ونسيت الماضى والحاضر، واستسلمت للطفه ورقته، وتركت نفسها مستنده عليه، لكنها لم تلبث أن عرتها قشعريره حين ذكرت أن قلبها ليس بيدها. وفى لحظة غطَت عيونها النجل سحابة من الدمع تنم عما عراها من الحزن وتعبّر عن عظيم تقديرها لحامد." [١] .

ثم يتعرض السارد لطبيعة المكان وتأثير تلك الطبيعة على الشخصية، فعندما تواجه شخصية بعض المشكلات، فإن هذه المشكلات تظل عالقة بها تتألم منها الشخصية حيثما وجدت فالمكان مرتبط بسلوكيات الشخصيات وأفعالها، كما أن مولد لفاعلية فكرية يوازى بها فعل الطبيعة، ويحمل من خلالها إرادات الناس وتوجيهاتهم [٢] ويتسلل السارد إلى أعماق شخصية " حامد " الذى انتابته الهموم والأحزان فأرقت نومه وأرهقت نفسه، حتى استسلم للفراش، لكن ما إن استيقظ حتى انهالت عليه الأحزان بسياطها فقرر الخروج إلى الطبيعة لعله يتخلص منها :

" لكنه ما إن استيقظ فى الصباح حتى عاودته أفكار المساء. ففضل الخروج إلى المزارع لعله يجد فيها ما يلهيه عن همومه. وانكشفت المزارع أمام نظره تغطى أرضها خضرة البرسيم أو بعض الحبوب من تلك النباتات المملوءة مع لينها حياة، فإذا مر عليها الهواء نامت تحت سلطانه متضامة بعضها إلى بعض، يتماوج سطحها السندسى فتذهب موجاته إلى اللانهاية، وتضيع أمام النظر قبل خط الأفق إن لم تسقط على مجاوراتها من الجرداء. ولم يذهب بعيدًا حتى رأى دخانًا هناك قريبًا من حلة من حلل الأدرة . فقصده معتقدًا أن جماعة من الفلاحين قد أوقدوا نارًا اتقاء برد ذلك اليوم العبوس، وليعزيهم منظرها عن بقية هذا النهار الأخير من أيام الصوم." [٣].

كثيرًا ما تختلف الأماكن فى مناظرها وخصائصها وساكنيها أو مرتاديها، فالقرية غير المدينة فى مظاهرها وساكنيها، فالبيئة الريفية تزداد فيها الأواصر والروابط الاجتماعية، ومن ثم

---

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٢٨ .

[٢] ياسين النصير : إشكالية المكان فى النص الأدبى ، دار الشؤن الثقافية العامة ، آفاق عربية ، ط ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ١٥٥ .

[٣] هيكل – رواية زينب – ص ٣٠ .

فإن المكان يلعب دورًا حيويًا فى مصير الشخصيات، وهنا يتجلى السرد الروائى واصفًا القرية يوم عيد الفطر والكل يتبادل التهنئة والتبريكات فى مشهد ربما يختلف عما يرى فى المدينة:

"غدًا يوم العيد يتزاور فيه الناس ويبتادلون فيه التحيات المعتادة، ويتغير شكل الوجود فيخرج من صمته وحزنه إلى فرح وضجة، وتبتسم ثغور الفلاحين الذين يملأون طريق قريتهم رائحين جائين يصافحون كل من قابلوا، ويرجون له سنة طيبة وعمرا طويلا، ويدخلون بيوت أقاربهم وأصدقائهم يشاركونهم فى ذلك الجذل العام، ويضحكون معهم عن نفس طيبة راضية بالحياة. وينساب على الطرقات ما بين حين وآخر نساء وفتيات يحملن على رءوسهن عيد أخواتهن وقريباتهن، وهن فى جلابيبهن الحمراء أو سترانها بثوب أسود ينم عنها، وتتبع الواحدة الأخرى أو تسير إلى جانبها . وكلهن يتهادين فى مشيتهن، ويتحادثن وعليهن علامات السرور فإذا قابلن سربًا من أمثالهن تواقفن للتهنئة بالعيد، ولكنهن دائمًا ضنينات أن يرسلن فى هواء ذلك اليوم الفرح رنين ضحكاتهن خيفة أن يقال خليعات."[١].

فالهدوء والطبيعة الخلابة تعيد الذكريات وتشعل شجن القلوب، وقد انعكست الطبيعة بجنباتها أمام زينب، فنجدها ترى إبراهيم فى كل مكان من حولها:

" وأصبحت ترى فى إبراهيم كل آمالها وكل جمال الوجود. ولم يبق أمامها شمس ولا قمر ولا كواكب ولا مزروعات تنظر إليها وتناجيها، ولكن بقى إبراهيم، تجده وترى صورته فى كل هذه الأشياء. فإذا ما رأته هو جاءها حياء المرأة الطبيعي، فأسبلت عينيها، وتمتعت فى نفسها بلذة أشبة شئ بالسكر، لذة تتخدر معها الأعصاب، فلا يهتم الإنسان لما حوله ويبقي مستسلمًا لسرور لا يقدر على تكييفه، وتكون كبرى أمانيه أن يظل كذلك طول حياته." [٢]

وعلى الرغم من جمال المكان الذى يشع منه النور، وتحيطه الأشجار مما يبعث فى النفوس البهجة والسرور إلا أن " زينب " تشعر بالحزن والألم:

" وقابلتها الحقول لأول ما خرجت قد نما فوقها القطن ولا يزال شجره صغريًا ضئيلاً والأرض مكشوفة قد كستها شمس الربيع ترسل شعاعها وسط الجو الساكن الهادئ، والسماء زرقاء صافية يلمع على سطحها العظيم النور الممتد على الوجود وعلى مرامى النظر تقوم الأشجار تحف بالمزارع وقد ابتدأت ريح الأصيل تهز أوراقها. فسلكت بينها سكة مدقوقة تركها النور بيضاء سمراء. ولم تك إلا سويعة حتى ابتدأ كل ما يحيط بها تدخله الحياة ويستفيق من غفوة الظهيرة. وابتدأ يقطع صمت الجو الأخرس جماعة الطير تفر من فروع الشجر بعد مقيلها

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٣٢ .

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ٣٧ .

وتصدح بنغماتها العذبة، فتضيف إلى الحياة الوليدة معنى السرور والبهجة، ويحمل الهواء أغاريدها يوقظ بها الخليقة النائمة المحرورة. وهكذا تنبعث الحياة فى أجزاء الكون وتسرى السعادة فى جميعه، أرضه، وسمائه، وشجره، وطيره، وهوائه، ولا يبقي تحت السماء مما تحيط به دائرة الأفق بائس محزون إلا قلب تلك السائرة فى وحدتها." [١].

ويلاحظ – هنا – أنها استقرت – فى هذا المكان – وقتًا ليس بالقصير حتى حل عليها المساء، غير أنها تشعر بعزلتها عن المكان، وقد يتبادر إلى الذهن بأنه مكان يبعث على استشراق المستقبل والأمل والفرح إلا أن قلبها يرتعد ويُظلم الأفق أمام عينيها وقلبها يجف عند مغرب الشمس، ويبدو – هنا – أن الكاتب يستدعى فى المكان لحظة الغروب التى ترتبط بالقهر والقسوة عندما أجبرها أبوها على مالا تهواه:

" حتى أبوها الذى كانت تعتقده رجل الخير والصلاح يلوح عليه أنه يبتسم لهذه الإشاعة المنكودة. رفعت طرفها وعيناها ممتلئتان بالدمع، وقلبها يجف، وبدنها يرتعد، فإذا الشمس غشتها سحب المغرب بعثت على ما حولها حمرة قانية وهى تنحدر إلى مغيبها كما تنحدر إليه كل يوم تنذرها بإمساء الوقت ووجوب الرجوع إلى الدار. فقامت، وبيد سائبة خائرة نفضت ثوبها الأسود الذى انسدل عليها مستقيمًا من كتفها إلى كعبها." [٢].

لكن سحر الطبيعة ورونقها يتجلى فى اقتناص زينب لحظات السعادة المعدودة فى حياتها، وكأن الطبيعة تحنو عليها وترأف بها وترسم على ثغرها ابتسامة رقيقة عذبة متشابهة لها، عندما تنسحب – بعد العشاء – لتلتقى بإبراهيم فى ليلٍ خامد ساكن لا يحركة إلا أحلام الطبيعة :

" وبين المزارع الواسعة يترنّح فوقها نور القمر فى سماواته، سارا الهوينا يخاصر كل منهما صاحبه، وينظران بعيون حيرى فى لجج الفضاء، وقد طوقت ثغريهما ابتسامه راضية، وفاضت عنهما السعادة لا يقدرانها، وشعرا بهناءة لم يقطعاها بحديث بل تركا أنفسهما تطير فى ذلك العالم الحلو سكرى بلذته، والكون حولهما ساكن إلا من أحلام الطبيعة يوحى بها الصرصار والضفدع، والليل شيبه الغرام أرسل بذوائبه البيضاء على المسطوحات الهائلة، والبدر صديقهما الحميم يسرى معهما، أو حاسدًا زينب يتبع خطاها ويتأثرها بنظرات الحانق سقط فى يده ....

أين أنت يا قمر السماء من جمال زينب ولم أعرك لفتة وهى إلى جانبى ؟ إن فى تلك النظرات التى تبعث هى بها أليك لسحر الشباب الذى فقدته أنت من قرون القرون، وتلك الابتسامة السعيدة التى تطوق ثغرها تهزأ بخطوط المشيب البادية على وجهك. ولكن أحلامه قطعها قول زينب يا سلام ! القمر حلو.

---

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٣٩، ٤٠ .

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ٤٠ .

– إنتِ أحلى يا زينب.

وطوق خصرها بذراعه وقبلها فى جبهتها ، ثم فى صدغها، ومن جديد نظر معها إلى القمر. " [١] .

ويلاحظ – هنا – ارتباط المكان بلهجة أو لغة معينة حيث تتأرجح اللغة فى الرواية بين الفصحى والعامية الدراجة ويظهر ذلك فى الحوار الذى دار بين والد زينب وخليل حين ذهب لخطبة زينب لابنه حسن:

" هنالك قال خليل: والله طالبين القرب منك يا بو محمد .

– يا تلتميت مرحبة يا بو حسن ... واحنا قد المقام .

– الله يحفظك

– ويعنى إحنا حدانا حد يستحق الجواز ؟

– والله بدنا زينب لحسن

– إحنا والله ما نعز عليك حاجة يا خليل ... لكن انت عارف البنت صغرية من ناحية ، وهى اللى بتقضيلنا الحاجة من ناحية ... كمان يا خوية سنتين والا ثلاثة لما تكبر هى وتكون أختها بقيت لايجة للشغل . هنالك انبرى من بين القوم رجل ذو وجاهة، عريض الصدر، عظيم الهيئة، هو شيخ البلد وقال : حاكم انت يا بو محمد ! ... صغيرة إية يا خوية ... عمرنا بنجوز البنات وهم أصغر منها ... والله إنى جوزت ديك السنة بنت أبو سمية ده . أبو عامر لعلى أبو إبراهيم وهى أصغر خالص من زينب .. يا راجل بلا كلام.

ثم تلاه آخر يظهر عليه أنه من الأعيان، وقال موجها الكلام لشيخ البلد: ومنتاش فاكر يا مصطفى بنت مسعودة لما جوزناها ؟ حقه والله كانت يا عيني قد .. قد إيه .. مافيش خالص. شوية وكللات وبقيت عال .. لكن زينب باسم الله ما شاء الله كبيرة وحلوة ولوحدها تقوم بعيلة (ثم وجه الكلام لأبى الفتاة) صغيرة أيه يا راجل ما تقولش الكلام دا . " [٢] .

غير أن السارد عندما ينتهى من حديث الشخصيات يعود إلى لغته الفصحى باستخدام ضمير الغائب؛ ليعكس للمتلقى ثقافته الواسعة ومهارته اللغوية .

" فإذا هى خلت إلا نفسها تقطعت نياط قلبها أسى، وداخلها اليأس، وتحدرت دموعها، ثم تراها أمها فتلومها على ما هى فيه وتعمل لعزائها، ولكن أنَّى لها أن تتعزى ؟ إنها لتود أن تخرج

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٧٤ .

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ٧٥ .

هائمة على وجهها تتقاذفها الأكوان وتتناولها يد القدر، فإنها مهما تكن قاسية فى معاملة الفقير فهى ألين من يد أبويها وأحنى عليها منهما. وهل هى واجدة إلا شقاء بشقاء، ونصبًا بنصب ؟!

ويضمها إبراهيم لصدره كلما جلست إليه، ثم يجاهد هو الآخر لعزائها فلا تجد فى ذلك إلا تشديدًا لآلا مها وإحلالا لليأس موضع كل رجاء من قلبها، وكادت تذهب بها أحزانها إلى الجنون، وتخرجها من بين الناس إلى حيث لا يعلم بأمرها أحد.." [١] .

وعندما انتقلت" زينب " إلى عش زوجها" حسن"، ارتبطت الهموم والأحزان بهذا المكان الجديد وأحست بغربتها عن هذا المكان، واغترابها عن حكاياته وتقاليده العائلية، لدرجة أن حديثها مع زوجها بدا حديثًا مصنوعًا لا ينبثق من القلب:

" وأحست بالوحشة لأول يوم حين وجدت نفسها غريبة بين متعارفين، عندهم من العقائد العائلية القديمة والأوهام، ويحفظون من الحوادث والحكايات، ويذكرون جميعًا أيامًا يعدونها ذات أثر أو مبدأ تاريخ، ما يزيد فى وجوه الشبه بينهم، ويربطهم معًا برباط العائلية. لذلك كان خادمهم أقرب إليهم من العروس الجديد. فإذا جلسوا يتحادثون اضطرت هى أن تلزم الصمت، وإن تكلمت فبأوجب الواجب، وإن رجعت إلى وحدتها راجعها من آلامها ما يزيد حزنها. وإذا خلا بها حسن وجعل يخاطبها فيما يخاطب به الشاب أو الفتاة أو الزوج زوجه وجدت كلامهما ذابلا باهتًا. وجدته كلامًا مصنوعًا يجئ به موقفهما، ولا توحى به القلوب أو تدفع إليه الإحساسات الهائجة التى تريد أن تظهر ولا يمكن حبسها. ولكنها مضطرة أن تجيب على القول بمثله، وترد على كل ما تسأل عنه بما حفظته من الناس. "[٢] .

وعلى كل، فإن المكان يؤثر تأثيرًا بالغًا على الشخصيات داخل العمل الروائى، فهو يتخذ أشكالاً ويتضمن معانى عديدة بل إنه قد يكون فى بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل الأدبى كله.

فالمكان – كما ورد من النصوص السابقة – يرتبط بذكريات مدفونه فى أعماق الشخصية، كما أنه يشير إلى الحالة النفسية للشخصية من خلال الشعور بضيق المكان أو اتساعه بصرف النظر عن الأبعاد الطبوغرافية أو الحدود الجغرافية.

كما أن المكان يحدد البعد الاجتماعى والثقافى والاقتصادى للشخصية والمكان من أبرز المقومات الفنية فى السرد الروائى، حيث يستدل منه على معلومات قد يتغاضى عنها السارد،

[١] هيكل – رواية زينب – ص ٧٧.

[٢] هيكل – رواية زينب – ص ٨٧

لكنها تصل إلى المتلقى غير وصف المكان كما لو كانت ضمن الوحدات السردية التى تشكل بنية النص الروائى.

خاتمة

١- الرواية نتاج شوق وحنين الكاتب إلى الوطن، وتعالج قضية اجتماعية عاني منها المجتمع الريفي كثيرا، وأودت أناس كثر في غيابات الحيرة والإحباط واليأس والمرض كما حدث لزينب الشخصية المحورية، وحدث أيضا لـ " حامد" الذي تمسك بالتقاليد، وكان بإمكانه أن يعيش سعيدا، ولكن لا ينفع الندم بعد فوات الأوان، وقد تناول البحث المنظور النفسى والأيديولوجى فى رواية زينب باعتبارها باكورة الرواية .

٢- كما تهدف الرواية إلى حب الوطن والولاء والانتماء له، لكثرة أفضاله علينا، ترك الحرية للشباب في اختيار طريقهم إلى مستقبلهم، وعدم إجبار الشباب على الزواج؛ لأن ذلك قد يؤثر على حالتهم الصحية والنفسية، ويؤدي إلى الانفصال والتفكك الأسري وانهيار المجتمع، على المرء أن يأخذ قراره بنفسه ولا يتردد فيه مادام أنه لا يخالف الشرع أو القانون، وأن يبوح بمشاعره ولا يخشى في الحق لومة لائم، ارتباط الإنسان قوي بمكان الطفولة ودائما ما يحن الإنسان لذكريات الطفولة ولهوها ولعبها .

المراجع والمصادر

١- برنارد فاليط، النص الروائى " تقنيات ومناهج " ترجمة د/ رشيد بنجدو، المشروع القومى للترجمة والمجلس الأعلى للثقافة القاهره ١٩٩٩ – ص ٤٥ .

٢- حميد الحمدانى: النقد الروائى والأيديولوجيا، المركز الثقافى العربى، ط ١، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٢٦.

٣- حسن بحراوى- بنية الشكل الروائى ، مركز الثقافى العربى – ط ١، بيروت – ص ٤٤ .

٤ – حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء . الزمن . الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط١،بيروت / الدار البيضاء١٩٩٠م، صـ .٢١٣

٥- حميد الحمدانى، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبى .

٦- د/ يوسف نوفل : قضايا الفن القصصى – ط ١ القاهرة ١٩٧٧ م – ص ١٧١ .

٧- د. عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية " بحث في تقنيات السرد"، سلسلة عالم المعرفة، العدد(٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ديسمبر ١٩٩٨م، صـ ١٠٣.

٨- عبدالحكيم حسان : مقدمة " الجرح " مجموعة قصصية للدكتور حسن البندارى – مكتبة الأنجلو المصرية – ط ٢ ، القاهرة ١٩٩١ م – ص ٩ .

٩- عبدالله العروى: مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافى العربى(التنوير)، ط ١، الدار البيضاء ١٩٨٣، ص ١٣ .

١٠- سلمى مبارك : في شاعرية المكان (المدينة في الأدب والسينما)، فصول، ع (٥٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ربيع ٢٠٠٢م، صـ .٣٠٦

١١- د/ سيزا قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة فى ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهره ٢٠٠٤ م، ص ١١٥

١٢- شاكر عبدالحميد: الحلم والرمز والأسطورة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهره ١٩٩٨م، ص ٤١.

١٣- صبرى حافظ : للحداثة والتجسيد الروائى للرؤية الروائية، فصول ج٤، ٤٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهره ١٩٨٤ م – ص ١٧٢.

١٤- – كارل منهايم(الميتافيزقيا والعصر والأيديولوجيا)، نقلاً عن: عبدالسلام بن عبد العالى، الشكة المغربية للناشرين المتحدين ط ١، الدار البيضاء، ١٩٨١ م ، ص ٤٩

١٥- محمد حسين هيكل – رواية زينب – ص ١٣، ١٤ – مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة – ٥٤ عمارات الفتح، حى السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة جمهورية مصر العربية.
١٦- ميخائيل باختين: الخطاب الروائى – ترجمة : محمد برادة – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – ط ١ – القاهره ١٩٨٧ – ص ١٠٢.
١٧- د/ محمد منجيب التلاوى: الذات والمهاز. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٧ م – ص ١٦١ .
١٨- د/ محمود الحسينى: تيار الوعى فى الرواية المصرية المعاصرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية ٤ (٥٩) القاهره ١٩٩٧ – ص ٨٥ .
١٩- د/ مصطفى الضبع، رواية الفلاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهره ١٩٩٨ م – ص ٢١١ .
٢٠- نبيل سليمان – فتنة السرد والنقد – دار الحوار للنشر والتوزيع – ط ١، اللاذقية، سوريا – ١٩٩٤ م – ص ٢١٧
٢١- ياسين النصير: إشكالية المكان فى النص الأدبى، دار الشؤن الثقافية العامة، آفاق عربية ط ، بغداد ١٩٨٦، ص ١٥٥ .
٢٢- https://www.hindawi – تاريخ الدخول ٢٠٢٢/٦/٦
23 - see coud weel . cristpophesl sludies im a dying culture London , Johnlam the bodley head 1951 , P22 .